من الأدب العربي إلى الأدب الإسلامي

د. عبده زايد

لم يعد الحديث عن «الأدب الإسلامي» يجرى همسًا في المجالس الخاصة، أو في الهزيع الأخير من الليل والناس نيام، لقد انقضت مرحلة التوجس والتحسس، وتلمس الطريق إلى العقول والنفوس، وأصبحت الدعوة إلى «الأدب الإسلامي» شيئا مألوفا، يستقبله الناس بالبشر والترحاب، أو بالصد والإعراض، وقد تبع ذلك انفتاح شهوة الكتابة في هذا المجال، تأييدًا له، أو ضيقا به، أو تساؤلا عنه.

ولم يكن دعاة الأدب الإسلامي يظنون أن هذه الدعوة ستفتح لها الأبواب على مصراعيها، إنهم على العكس من ذلك، كانوا يتصورون العقبات بأكبر من حجمها الحقيقي، وأنا واحد من الذين يعتقدون أن النجاح الذي تحقق لهذه الدعوة أكثر مما كنا نتوقع، وقد تم في زمن أقل مما كنا نرجو.

ولكن انفتاح شهوة الكتابة والمناقشة في هذا الميدان، كشف في أحيان كثيرة، عن ابتسار القراءة، أو قصورها، أو انعدامها، ممن يخوضون لجة هذه القضية، وقد تمخض عن هذا كله طرح أسئلة، وإلقاء عقبات، وتدبيج اتهامات، ظن أصحابها أنها تصيب الدعوة في مقتل، أو تمثل عقبة كأداء في سبيلها، على أحسن الفروض.

لكن المفارقة الغريبة في هذه القضية، أن هناك كثيرين ممن يقفون معك في خندق واحد، دفاعا عن نفس القضية، يرفضون التسمية والاصطلاح، ويجاد لونك فيها أشد الجدال، وينكرونها عليك إنكارهم للبدعة التي تؤدي إلى النار!!

وفي تصوري أن من أكبر الاعتراضات التي يُقَذف بها دعاة الأدب الإسلامي، أنهم بدعوتهم هذه يضيقون واسعا، ويمحون من ديوان أدبهم أكثر الأدب العربي الرفيع، ويغلقون دونهم باب التفاعل مع إنجازات البشرية، في ميدان الأدب والنقد، ويخضعون آيات الإبداع لمقاييس الدين بدلا من مقاييس الجمال، وما أظن أن هناك ندوة للأدب الإسلامي، أو مؤتمرا، إلا طرحت فيه مثل هذه الأسئلة أكثر من مرة، أما عدد الأسئلة التي طرحت من هذا النوع في أحاديث صحفية أو مقابلات إذاعية فلا سبيل إلى أحصائها، ولا أظن أن هذه الأسئلة سوف تختفي في وقت قريب أو حتى في وقت بعيد!!

إن الكثيرين من المبدعين والنقاد والدارسين، على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم، يستريحون إلى مصطلح «الأدب العربي» ويرون أنه في مأمن من هذه الاعتراضات والتساؤلات، فهم يدرسون من خلاله الشعر الجاهلي، بنفس الهمة التي يدرسون بها الشعر الإسلامي وربما أكثر، ويدرسون فيه شعر النصارى واليهود والمسلمين بلا نظر إلى عقيدتهم، ويستمتعون بآيات الجمال الأدبي في شعر الغزل والنقائض والخمريات كما يستمتعون بها في شعر الزهد والورع والحكمة، وربما تفوق الأول في إبداعه وجماله، فلماذا يتركون سعة الأدب العربي، إلى ضيق الأدب الإسلامي؟!

تاريخ طويل:

ونحن إذا ما نظرنا إلى الأدب العربي على امتداد عصوره، التي تمتد إلى مائة وخمسين عاما قبل البعثة النبوية وإلى الآن، فإننا نجد أن مؤرخي الأدب قد قسموه إلى أطوار زمنية، وربطوه بأحداث تاريخية بارزة، وأعطوه مصطلحات متعددة، كالأدب الجاهلي، والأدب الإسلامي، والأدب الأموي (وقد يدخل تحت مصطلح الأدب الإسلامي عندهم) والأدب العباسي، والأدب الأندلسي، والأدب الحديث، وهناك مصطلحات أخرى تتردد في هذا التاريخ الأدبي، الذي بدأه المستشرقون، ثم أصبح تقليدا لدارسي الأدب من بعدهم(١)، وأنت ترى أن مصطلح «الأدب الإسلامي» يكاد ينحصر في أدب صدر الإسلام، حتى قيام الدولة الأموية، وقد يمتد إلى أواخر الدولة الأموية، والمصطلح على هذا ليس مصطلحا أدبيا ولا فنيا، وإنما هو مصطلح يميز حقبة زمنية معينة ليس أكثر، ويمكنك أن تستبدل بهذا المصطلح أي مصطلح آخر، يميز هذه الحقبة، دون أن يكون في هذا حيف عليك، ثم إن هذا المصطلح يتعادل مع المصطلحات الزمنية الأخرى، تحت المصطلح الأكبر، وهو مصطلح الأدب العربي ـ والتسمية تسمية استشراقية أيضا(٢).

فإذا ما رجعنا إلى مصطلح الأدب العربي، الذي يرتضيه أغلب الدارسين والنقاد والمبدعين، ويألفونه، ويقاتلون دونه، ولا يرضون به بديلا، وأردنا أن نغوص فيه فماذا نجد؟

إن الأدب العربي كما هو معروف أدب لغة، وليس أدب جنس وعرق، وإذا كانت اللغة والعرق متحدين في عصر ما قبل الإسلام، حيث كانت اللغة العربية محصورة في العرب وحدهم، فإن الأمر لم يكن كذلك، عندما خرج الإسلام من الجزيرة العربية، فقد انتشرت اللغة بانتشار الإسلام، وأصبح الذين ينتمون إلى هذا اللسان من غير العرق العربي هم الكثرة الغالبة في الأقطار الإسلامية.

ومن البدهيات أن اللغة ـ أية لغة ـ ليست مجموعة من الأصوات والحروف والمفردات المجردة، ولكنها تشكيل ثقافي وحضاري، يتناسب قوة وعمقا، مع قوة الثقافة، وعمق الحضارة. إن اللغة ما كانت ولن تكون ميزانا محايدا، توزن به هذه المادة أو تلك، إن اللغة تتشكل مع الثقافة والحضارة وبهما، وتلبس اللغة بالتكوين الثقافي والحضاري تلبس مادة بروح، إن المفردات تولد وتحيا، وتنمو وتخلد، في ظل ثقافة حية، وحضارة خالدة، وإن العلاقات بين هذه المفردات لا تتم بشكل تجريدي، كالعلاقات بين الأرقام في الرياضة، والرموز في العلم، وإنما تتم في إطار حيوي، يقف على الفروق الدقيقة، والمعاني العميقة، واللطائف البعيدة، واللغة العربية التي وصلت إلى قمة نضجها قبيل نزول القرآن الكريم، كانت تجسد مفرداتها وتراكيبها عقل أمة، ووعي جماعة، رزقت رهافة الحس، وعمق الشعور، وحب مكارم الأخلاق.

إن جاهلية العرب قبل الإسلام كانت جاهلية اعتقاد بالدرجة الأولى، ومصطلح الجاهلية مصطلح إسلامي كما هو معروف، لكن هؤلاء الجاهليين كانت لهم من الصفات الحميدة، والخصال العالية، ما يرفع أسهمهم في ميزان

> ارتباط لغتنا بالحضارة الإسلامية ارتباط جوهرى لا فكاك منه

الخلق القويم .

إن العربي الجاهلي كان يفتخر بالكرم والشجاعة، والوفاء بالعهد والعفة، وإغاثة المستغيث، ونصرة المظلوم، وحماية الجار، وكان يهجو بأضداد هذه الخصال، وقد انتفع الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية بهذه الخصال الحميدة إبان المرحلة المكية .

فنصرة أبي طالب له حتى مماته، برغم كل ما تحمله في سبيل ذلك، كانت تجسيدا للأخلاق العربية .

ونصرة حمزة له حتى دخل الإسلام حمية في بادئ الأمر، كانت تعبيرا عن هذه الأخلاق .

وإجارة المطعم بن عدى له حينما عاد من الطائف، وحمايته له، كانت ترجمة لما توارثوه منها .

وإنقاذ الرسول ﷺ ومن معه، من الجوع والهلاك، في شعب أبي طالب، كانت إحياء لكريم الصفات .

وأنت إذا نظرت إلى مفردات اللغة التى تكونت في تلك المرحلة وجدت فيها تجسيدًا لخلق، وتصويرا لقيمة، فالميثاق مصوغ من الثقة، والجوار من الإجارة والحماية، وليست مجرد ملاصقة بيت لبيت، والعقل من عقال البعير الذي يضبط حركته، فلا يخبط خبط عشواء، ولا يتصرف تصرفات هوجاء، والإغاثة من الغيث، وهو الذي يحيى موات الأرض والأحياء، ويحميهم من البوار والهلاك، والصداقة من الصدق، وتجد نسبا ناشبا بين الحياة والحياء، فإن لم تجمع بينهما وحدة الأصل، فقد جمع بينهما قرب التشابه في اللفظ والمعنى . . . وهكذا .

فلما جاء الإسلام، وأكرم الله هذه اللغة، فأنزل بها آخر كتبه إلى البشر، لم تبق اللغة على ما كانت عليه، لقد احتفظ الإسلام بأفضل ما في هذه اللغة، وأضفى عليها روحا جديدة، مستمدة من الوحي، وقد استطاعت هذه اللغة أن تستوعب هذه العقيدة الجديدة، والحضارة التى بنتها هذه العقيدة، على امتداد قرون، على أفضل ما يكون الاستيعاب، ولست في حاجة إلى أن أقول إن المسافة ما بين اللغة العربية، التى كانت موجودة قبل نزول القرآن الكريم، وبين اللغة التى تجلت فيها العقيدة والشريعة والسنة، وعلوم الحضارة ومنجزاتها، كالمسافة ما بين الفسيلة والواحة، التى تزداد كل يوم ظلالا وثمارا .

ولقد كانت اللغة في ظل الإسلام قادرة على تجسيد المعاني الجديدة، بنفس القوة التى كانت لها قبل ذلك؛ لأن هذه القدرة كامنة في طبيعتها ـ وليس في زمانها أو بيئتها ـ فأنت لا ترى في كلمة الإسلام مجرد مصطلح لهذا الدين، وإنما تجد فيه تجسيدا للسلام والسلامة والتسليم لخالق الوجود، وتجد الإيمان يضم في منظومته الاشتقاقية الأمن والأمانة، ومن هنا لم يكن المسلم أو المؤمن مجرد منتم للإسلام أو الإيمان، وإنما كان مجسدا لهذه المعاني كلها، ويكون حظه من هذه الصفة أو تلك، بمقدار حظه من هذه المنظومة المتكاملة، كما أنك لا تجد في الطهارة مجرد نظافة لأعضاء الجسم، وإنما هي شيء أبعد من هذا وأعمق، وإلا لكانت النظافة كافية للتعبير عن هذا المعنى، ولا تجد في مصطلح الصلاة مجرد أداء لحركات شكلية، وإنما تلمح فيها الصلة بين العبد وربه، وفي الزكاة تزكية ونماء، مع أنها في الأصل انتقاص من المال، أما الحج فإنه مصطلح مفعم بعبق التاريخ، والمواقف الرفيعة والمسالك العالية والمعاني السامية، والقيم الشريفة، إنك تجد فيه التسليم والرضا، والطمأنينة والطاعة، والعناية والرعاية، والتجرد من شهوات النفس ورغباتها، والانعتاق من الحول والطول، ولو رحت تستقصي هذه المعاني لما كفتك الصفحات الطوال، ولقصرت العبارة عن الإحاطة . ولم تكن هذه المفردات جديدة في ميلادها ونشأتها، فقد كانت موجودة في الجاهلية، ولكنها لم تكن محملة بهذه المعاني الجديدة التى أسبغها الإسلام عليها، وأصبحت لا تعرف إلا به، إن العلماء حينما كانوا يتعاملون مع هذه المفردات، كانوا يشيرون إلى معانيها اللغوية، ثم يشيرون إلى معانيها الاصطلاحية الجديدة التى تلبست بها، وإذا استثنيت علماء اللغة فإنك لا تجد أحدا يذكر المعاني اللغوية لهذه المفردات .

ولم يتوقف الأمر عند هذا، فقد تعامل العلماء فيما بعد، حينما تفجرت المعارف والعلوم النقلية والعقلية مع هذه اللغة تعاملا أثراها ونماها، حتى وسعت كل هذا التراث العلمي، المقتبس والمبتكر على السواء، وحينما تعاملت اللغة مع هذا التراث لم تتعامل معه بثوبها الجاهلي . وإنما تعاملت معه بصورتها الجديدة، ونمت، وتطورت، في ظل هذه الصورة؛ لأن هذه الحضارة في الأصل لم تنطلق من قيم الجاهلية وتصوراتها . وإنما انطلقت من قيم الإسلام وتصوراته، فالقرآن الكريم هو مفجر هذه الحضارة كما هو معلوم .

خدمة لغة القرآن

وأئمة اللغة الذين أفنوا أعمارهم في خدمتها كانوا يتقربون إلى الله بخدمة لغة القرآن الكريم، وهذا التراث العلمي في الأصوات والتجويد والمعاجم، والنحو والصرف، والبلاغة، كان يخدم لغة القرآن بالدرجة الأولى، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وعبد القاهر الجرجاني الذي أكثر من التعامل مع الشعر، وانتصر له، واحتد على كارهيه، كان يبحث عن خصائص التراكيب والعلاقات بين المفردات ليقفنا على دلائل إعجاز القرآن الكريم . فهل يمكن لأحد بعد ذلك كله أن يتصور لهذه اللغة كيانا، ووجودا، وحياة بمعزل عن القرآن الكريم، والحضارة الإسلامية التى نشأت ونمت في ظلاله ؟! .

وهل يمكن لأحد أن يفهم أسرار هذه اللغة، وأن يدرك خصائصها بمعزل عن القرآن الكريم، الذي منحها روحا وحياة وخلودا، لم يمنح لغيرها من لغات الأرض؟ . وهل يمكن لأحد أن يتصور أنه قادر على التعامل مع هذه اللغة في التراث الجاهلي وحده ـ ولم يبق منه إلا قليل ، اعتمادا على أن اللغة قد وصلت إلى ذروتها في هذه المرحلة، ولا حاجة له إلى ما بعد ذلك؟

إن ارتباط هذه اللغة بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، والحضارة الاسلامية، ليس ارتباطا شكليا، وإنما هو ارتباط جوهرى، كارتباط الأنسجة في الكيان الواحد، فليست اللغة مجرد وعاء للمعاني، بحيث يمكن لأي أحد أن يجردها من هذه المعاني، أو يجرد الوعاء منها، ويبقى الوعاء خاليا من أي أثر لها. إن حياة هذه اللغة هي حياة هذه الحضارة والثقافة. لقد ارتفعا معا، إبان مرحلة الازدهار، ثم تراجعا معا، إبان مرحلة التوقف والجمود والاجترار

في هذه المرحلة الطويلة الممتدة. لم تستطع

أية حضارة أخرى أن تستلب اللغة العربية من الإسلام عقيدة وحضارة، لتضفي عليها من خصائصها وتصوراتها ما يجعلها غريبة عن الإسلام أو يجعل الإسلام غريبا عنها.

نجاح أكيد:

فلما جاء العصر الحديث، عصر سيادة الحضارة الغربية العلمانية، أصبحت اللغة العربية في خطر حقيقي؛ لأن هذه الحضارة لا تتعايش مع الحضارات الأخرى، ولا تتواصل معها، فطبيعتها القهر والغلبة والاستعلاء، وقد حاولت هذه الحضارة الغالبة أن تمحو هذه اللغة محوا بإحلال العاميات محلها، أو إحلال لغة أجنبية، كالفرنسية في الشمال الإفريقي، والإنجليزية في مصر والعراق والأردن وغيرها، وكان الاستعمار يظن أنه سينجح في هذا، كما نجح في القضاء على كثير من لغات الشعوب المستعمرة، التي ليست لها حضارة، لكن الأمر استعصى هنا عليه وتأبى، برغم استخدامه لكل الأسلحة الممكنة.

ونحن لا ننكر أن هناك نجاحا قد تحقق للعاميات المحلية، خاصة في لغة الحوار القصصي والمسرحي، المكتوب والمسموع، وفي انتشار الشعر العامي، كما تحقق للغات الأجنبية بعض النجاح، في لغة التدريس للعلوم الحديثة، وخصوصا العلوم الطبية، ولكني أعتقد أن النجاح الذي حققته اللغة العربية في نفس هذه المرحلة، كان أكبر من أي نجاح تحقق للعاميات المحلية أو اللغات الأجنبية، ومن شاء أن يتحقق فليقارن بين لغة الأدب، أو لغة الكتابة، أو لغة الصحافة، منذ نحو قرن مضى، حينما كانت الحرب ضد اللغة العربية في بداياتها الأولى، وبين لغة الأدب، ولغة الكتابة، ولغة الصحافة الآن، إن المسافة بينهما تجسيد للنجاح الذي تحقق للغة العربية، في هذه المرحلة على يد أبنائها المخلصين.

ولم تتوقف الحرب ضد هذه اللغة على هذين المحورين، فقد امتدت إلى الحرف العربي، فحاولوا محوه وإحلال الحرف اللاتيني محله حتى تنقطع صلة الأجيال التالية بالتراث كله، كما حدث في تركيا على يد مصطفى كمال، ولكن هذه الخطوة أيضا باءت بالفشل الذريع، ولم يبق إلا أن تغتال هذه اللغة اغتيالا، فلتبق العربية حروفا وكلمات، أما أن تبقى كما عرفناها في تاريخ الحضارة الإسلامية فلا.

وفي هذا الإطار ظهر أدب جديد، يكتب بحروف عربية، وكلمات عربية، ولكنه مقطوع الصلة بهذه اللغة، من حيث كونها تعبيرا عن هذه الحضارة الإسلامية الممتدة، فالمفردات تفرغ من مضامينها، لتكتسب مضامين جديدة، ونظام العلاقات بين المفردات لا بد أن يهتز، والتركيب

> العربية حققت نجاحات تفوق ما حققته اللهجات على تنوعها واختلافها.

لا بد أن يختل، وطريق المجاز والكناية لا بد أن يولى وجهه شطر الحضارة الجديدة، وأساليب البيان على وجه الخصوص من تشبيه ومجاز وكناية لا تنفصل عن الإطار الحضاري والثقافي بحال، وإذا كانت اللغة القديمة طريقا لتصوير المعاني، فليهدم هذا التصور، ولتكن اللغة الأدبية بعيدة عن التوظيف لخدمة فكرة ما، ولتعبر عن الأحلام والهلوسات والوساوس، لتكن اللغة همهمة لا بيانا، أما الوضوح والعلاقات المنطقية بين الجمل، فليست من الأدب في شيء، وفي ظل هذه الهجمة الشرسة، ظهر أدب عربي لا علاقة له بهذه اللغة، إلا علاقة شكل الحرف، وشكل الكلمة، ومن هنا لم تكن القضية مقصورة على اغتيال قيم الإسلام، ورؤاه، وتصوراته، ومبادئه، لتحل محلها قيم أخرى، وإنما هي قضية تمتد إلى اللغة العربية كما عرفتها حضارتنا، تعبيرا عنها، ومظهرا لها، ولسانا مبينا، ناطقا بخصائصها.

ومن الطبيعي أن تستنفر هذه الهجمة أبناء هذه الحضارة، وأبناؤها لا ينحصرون في الذين اتخذوا هذا الإسلام دينا فقط، ولكنها تشمل كل من نبت في ظلها، وتشبع بثقافتها، حتى سرت في كيانه، وأصبحت جزءا من تصوراته، ولو لم يكن مسلما، انظر إلى كلمة الشاعر اللبناني المسيحي رشيد سليم الخوري المعروف بالشاعر القروي في اللغة العربية: «هي هذه اللغة الخصبة، الخلاقة المطواع، لغة أهل الجنة، اللغة التي اتسعت لرسالة الرحمن، اللغة التي ملكت فصحاها ألسنة أفذاذ الأدب العربي، وألفت بين قلوبهم في كل قطر سحيق، والتي يتناشد ألحانها بلابل الشعر، من الخليج العربي، إلى المغرب الأقصى، إلى كل مغترب قذيف، فتتجاوب قلوبهم بأصدائها، وتعلو على كل صوت شعوبي نكير، بها التفاهم، وبها الألفة، وبها الوحدة، فيها القوة، فالهيبة فالسلم فالنعيم المقيم، كل عادل إلى العامية عنها، مبشر بها دونها، إنما هو كافر بها وبكم أيها العرب، دساس عليها وعليكم، كائد لها ولكم، عامل على قتلها وقتلكم، فعلموا القرآن والحديث ونهج البلاغة في كل مدارسكم وجامعاتكم، لتقوم بالفصحى ألسنتكم، وتتقوى ملكاتكم، ويعلو نفسكم، وتزخر صدوركم بالحكمة، وتشرق طروسكم بساحر البيان»(٢).

وانظر إلى كلمة مصطفى صادق الرافعي في رده على سؤال لمجلة الهلال حول مستقبل اللغة العربية: «هذه اللغة تمتاز على اللغات كافة بارتباطها إلى الأصلين العظيمين الخالدين (القرآن والحديث)، وهما على وجه واحد أول الدهر وآخر الدهر، وإليهما مناط العقائد في العالم الإسلامي كله، فقد جعلا هذه اللغة ولا سبيل للغة عليها من حيث هي، كما أنه لا سبيل لدين على دينها من حيث هو، وهذا ما يهون الخطب فيها، إن ضعفت أو عدت عليها بعض عوادي الاجتماع، فإن قوة الحياة المستكنة في أصولها لا تلبث أن تشد منها، ويذهب بأمراضها أيسر علاج، وليس يخفى أن الكيان الإنساني قائم على القوى الأدبية، وأصل هذه القوى في العالم الإسلامي هو القرآن، وهو كذلك أصبح من وجوه كثيرة كأنه أصل اللغة، فما دام كل انقلاب اجتماعي فينا لا يأتي على هذا الأصل، فهو لن يأتي على تلك اللغة، وإذا كان الحي لا يبنى إلا من داخله فهو لا يهدم إلا من داخله»(٣).

ترى أي فرق بين ما يقوله الشاعر القروي وهو مسيحي شديد التمسك بمسيحيته وبين ما يقوله مصطفى صادق الرافعي وهو مسلم شديد التمسك بإسلامه، إنهما يريان أن القرآن الكريم والحديث الشريف هما عماد هذه اللغة في ماضيها وفي حاضرها معا، وهما معا يطالبان بتعليم القرآن والحديث لأبناء هذه الأمة نصارى ومسلمين، وإذا ظن أحد أن الرافعي مدفوع بعقيدته، فإني أرى أن الذي يجمع بين الرافعي المسلم، والقروي المسيحي، هو الحضارة الواحدة، فكلاهما ينتمي لهذه الحضارة، وكلاهما يرى أن التراث الحضاري

الإسلامي تراث مشترك لكل أبناء هذه الحضارة، بغض النظر عن اختلاف العقيدة، وكلاهما يرى أن التفريط في أسس هذه الحضارة إنما هو هدم لهذه الحضارة كلها، ولا يفعل هذا إلا خائن. إن الشاعر القروي يربط بين التمسك بهذه اللغة التي ترتشف رحيق الحياة من القرآن الكريم والحديث الشريف، وبين الألفة والقوة والهيبة والسلم والنعيم المقيم برباط قوي، ويرى أن التفريط في هذه اللغة إنما هو هدم لكل ذلك، ويرى أن من يعدل إلى العامية فهو كافر، دساس، كائد، قاتل، لا للغة وحدها ولكن للإنسان العربي أيضا.

ولم يكن الشاعر القروي بدعا في هذا الموقف من اللغة، ومن القرآن الكريم، الذي هو أصلها وروحها «فأمين نخلة مثلا كان يحفظ القرآن الكريم غيبا وكان يشاركه هذا أكثر شعراء جيله من الشعراء العرب مسلمين كانوا أو نصارى، ذلك أن القرآن الكريم كان ولا يزال سبيلا لا بد منه لكل من يريد إتقان اللغة أو الدخول في عالم الأدب»(٤).

انقطاع ..لماذا؟

لكنّ شعراءنا الذين يسمون أنفسهم بالمتحررين والتقدميين لا يؤمنون بشيء من ذلك، لقد قطعوا الصلة ما بينهم وبين اللغة العربية التي تستمد حياتها وروحها من القرآن والحديث، ومن هنا جاؤونا بلغة ننكرها ولا نعرفها، ننكر تراكيبها، واستعمالاتها، وطريقة بنائها، قبل أن ننكر المضامين التي تعبر عنها، إن كانت هناك مضامين، إن اللغة التي عرفناها كانت لغة تواصل، وهذه لغة انقطاع، فقد آلى هؤلاء على أنفسهم أن ينقطعوا عن تراثهم الحضاري انقطاعا كاملا باسم الحداثة والعصرية.

إن أدونيس الذي يفتتن به كثير من الشباب يدعو أولا إلى فصل الثقافة العربية عن الدين، ويدعو إلى نفي القداسة عن التراث، ويدعو إلى تفجير اللغة من داخلها، وعزل اللغة النمطية، فلا بد للشاعر أن يؤسس لغته الخاصة به، ويسخر من التراث العربي كله، ويردد هذا الكلام في معظم كتاباته، وخصوصا في كتابه «الثابت والمتحول»، ويكتب شعرا يجسد فيه رؤاه النظرية، لا يقول شيئا ولا يعبر عن شيء، ولا يفهمه أكثر المتخصصين في الأدب العربي.

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود، قد احتاج إلى شهر كامل حتى يفهم ديوان «أغاني مهيار الدمشقي»، فكم من الوقت يحتاجه من هو دونه ثقافة وفكرا ومعرفة بالثقافة العالمية التي يمتح منها هؤلاء؟، ومع أن الدكتور زكي نجيب قد فهم هذا الديوان وأحسن التعبير عنه بعد أن صبر عليه شهرا، فإنه ختم كلمته عنه بقوله: «لكن الحيرة تأخذني وتستبد بي أخذا واستبدادا لا يدعان أمامي سبيل الرأي ميسرا واضح المعالم حين أنظر إلى هذا الشعر الملغز الرامز الموحي، بعد أن تكون قد مرت عليه القرون، تلو القرون فأسأل، أتظل عندئذ له قوته وعمق أثره، حين لا يكون حول الناس ما يضيء لهم هذا الإلغاز، وذلك الرمز»(٥)، وأنا أعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى قرون حتى ينقطع التواصل بين هذا الشعر وبين الناس، فالانقطاع قائم الآن بينه وبين الأغلبية العظمى من متذوقي الشعر، وأما خاصة الخاصة الذين يصبرون على قراءته فإنهم لن يجدوا في المستقبل ما يغريهم بإنفاق الجهد في فك طلاسمه؛ لأنهم سيكونون أكثر حداثة، وسيشغلون بمعاصريهم الذين سينظرون إلى أدونيس على أنه تراث يجب أن يدفن؛ لأنهم لا بد أن يقطعوا كل صلة لهم بالتراث كله.

ولم يتوقف الأمر عند النتاج الشعري، وإنما

> ”المدافعون عن العربية جنود في ميدان الأدب الإسلامي.“

تجاوزه إلى لغة الأدب المنثور وإلى لغة النقد التي أصبحت كلغة التمائم والرقى والتعاويذ.

وإذا كان الدكتور زكي نجيب قد فهم لغة أدونيس بعد أن صبر على ديوانه شهرا، فإنه عجز عن فهم لغة مجلة «فصول» القاهرية، كما عجز كذلك نجيب محفوظ، وكثير من خاصة المثقفين وأساتذة النقد، وشعراء الحداثة أنفسهم. استمع إلى رأي أحمد عبد المعطي حجازي في لغة النقد المعاصرة: «في الوقت الحاضر لغة النقد عندنا نفسها بحاجة إلى شرح، هذا كله يؤدي إلى تعميق الإحساس بالنقص والعجز وعدم الفهم وعدم التواصل وعدم جدوى اللغة؛ لأن اللغة لم تعد تقول شيئا والسبب في ذلك أن هؤلاء النقاد لا يفهمون ما يمارسونه ولذلك لا يستطيعون أن يفهموا القراء»(٦).

وكما عجز الدكتور زكي نجيب عن فهم لغة النقد في مجلة فصول عجز كذلك عن فهم ما تفرزه غدد الهلوسة عند بعض الشباب، وقد حدث حافظ أحمد أمين أنه كان مع زكي نجيب محمود في بيته، وهناك التقى بشاب أراد أن يعرض عليهما بعض ما كتب فقرأ: «سارعت حواسي لاستقدام عنديات الفهم لطروحات لم نسلم بها، لعدم جدليتها مع كينونة الفنان. ذلك أن هذه الطروحات لم تكن البديل الموضوعي للمشكلة»، واستمر يقرأ ويقرأ حتى انتهى دون أن ينبس السامعان بكلمة، فلما انصرف هذا الأديب تساءل الدكتور زكي نجيب: ماذل كان يقول صاحبنا؟!، ولم يكن المسئول طبعا بأعلم من السائل(٧).

وما أكثر ما ضج خاصة المثقفين من غرابة اللغة واستغلاقها في لغة الأدب والنقد على السواء.

ولست أدري لمن يكتب هؤلاء؟ ولأي قبلة يتجهون؟!، والغريب بعد هذا كله أن يسمى هذا اللون من الأدب أدبا عربيا، وأن يسمى النقد المكتوب بهذه اللغة نقدا عربيا.

إن اللغة العربية التي عاشت في ظل القرآن والحديث، والثقافة العربية، والحضارة الإسلامية، والتي كان يعتز بها أبناء هذه الحضارة لم يعد لها وجود في أدب الحداثة.

وإن قيم هذه الحضارة ورؤاها ومبادئها والتي كانت ملك لجميع أبنائها من مسلمين وغير مسلمين لم يعد لها وجود في هذا الأدب أيضا.

وإن تراث هذه الأمة يراد له أن ينفصل انفصالا كاملا عن حاضر الثقافة والفكر والأدب، فلا يكون هناك أي نوع من التواصل ما بين قديم الأدب العربي وجديده.

والغريب في الأمر أن يدعو هؤلاء إلى الانقطاع الكامل ما بين حاضرنا وموارثنا باسم الحداثة والعصرية، في الوقت الذي ينفتحون فيه على تراث أبعد زمانا ومكانا، باعتباره تراثا إنسانيا، لا يجوز تجاوزه وتخطيه، وكأن التجاوز والتخطي لا يكون إلا لما هو عربي إسلامي، أما ما عداه فيجب أن ننفتح عليه، وأن ننغمس فيه انغماسا كاملا، «لا فرق عندهم في هذا بين التراث الديني والتراث الوثني، فالكتاب المقدس عند الحداثيين من التراث الذي يجب الانفتاح عليه واستلهامه، والأساطير والحكايات الشعبية في مختلف العصور والأمم يجب استيعابها وتمثلها والإفادة

منها ، والمذاهب الفلسفية والفكرية والأدبيــة فـي أقطـــار الأرض المختلفـــة ـ وخصوصا في الغرب ـ لا يجوز لأديب حداثي أن يهملها أو يقصر فيها .

أما الإسلام ـ كتابا وحضارة وتراثا ولغة وثقافة ـ فهو الذي يجب أن ننقلب عليه انقلابا كاملا ، فلا تكون هناك بيننا وبينه أية صلة ، ولا بأس من أن نستلهم تراث التمرد والرفض ـــ بمختلف صوره وأشكاله ـ في التراث الإسلامي ، فهذا من التراث المقبول ؛ لأنه يمثل صورا من الحداثة المبكرة التي تجب العناية بها والاحتفاء بأعلامها ورموزها!! .

وعندما يصل الأمر إلى هذه النقطة فلا بد أن يـــدخل مصطلح الأدب العــــربي دائرة اللبس والغموض والإبهام .

فعن أي أدب عـــربي نتحـــدث ؟ ولأي أدب عربي ندعو ؟ وبأية لغة عربية نتكلم ؟

فهل نملك أو نستطيع أن نخرج هذا العطاء الأدبي والنقدي الغريب لغة وأسلوبا وطريقة أداء ومضامين من الأدب العـــربي؟، إن أحدا الآن لا يستطيع ذلك بالطبع . فكيف نستطيع هذا وأقسام اللغة العربية في معظم كليات الآداب ، تعيش على هذا اللون من الأدب والنقد ، وتدعو إليه ليل نهـــار؟ وكيف نستطيع هـــذا ومعظم النـــدوات والمؤتمرات والمهرجانات التي تقام للأدب والنقد إنما يسيطر عليها سدنة هذا الاتجاه وكهنته ؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك بديل لطرح مصطلح «الأدب الإسلامي» للتمييز بين ما ينتمي إلى تراث هذه الأمة وحضارتها وبين ما لا ينتمي إلى تراثها وحضارتها .

إن مصطلح «الأدب الإســلامي» لم يطـــرح كبديل لمصطلح «الأدب العربي» الذي ينتمي إلى حضارة هذه الأمة ، وإنما طرح ليقف في وجه هذا اللون من الأدب الذي لا صلة بينه وبين مواريثنا الحضارية .

إن العلاقة بين «الأدب الإسلامي» و«الأدب العـــربي» الذي عبـــر عن مشاعـــر هــذه الأمـــة وأحـاسيسهـا ، وآمـالهـا وآلامهـا ، وهـزائمهـا وانتصاراتها ، وأفراحها وأتراحها ، وجدها ولهوها ، علاقة أخوية ، فقد حملتهما بطن واحدة هي الحضارة الإسلامية ، ورضعا من ثدييها (القرآن والحديث) لبنا سائغا للشاربين ، ومن الطبيعي أن يكون بين الأخوين بعض الفروق ، ولكنها فروق لا تقطع ما بينهما من الوشائج ، فالذي يجمع بينهما كثير وأصيل ، حتى ليبدوان في كثير من الأحوال وكأنهما شيء واحد .

ميدان واحد :

وإذا سلم هذا التصور ، وهذه الرؤية ، فهل أكون مخطئا إذا قلت إن كل من يدافع عن اللغة العربية التي عاشت هذه القرون في ظل القرآن والحديث ، هو بالضرورة جندي في ميدان الأدب الإسلامي؟ وهل إذا قلت إن كل أقسام اللغة العربيـة في الجامعـات الإسلامية كـالأزهـر الشريف ، وجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلاميـة ، وجامعـة أم القرى ، والقـرويين ، والزيتونة ، وغيرها من الجامعات الإسلامية هي ثغور يسهر عليها رجال ، يدفعون عادية الخصوم ، عن لغة القرآن الكريم ، وهم بالضرورة جنود في ميدان الأدب الإسلامي ؟ إنني هنا لا أتحدث إلا عن الأداة وهي اللغة ، ولا أتحدث عن المضامين التي استحوذت على معظم اهتمامات العاملين في حقل الأدب الإسلامي . فقضية الأداة والوسيلة لا تقل أهمية عن قضية المضامين ؛ لأن الوسائل والأدوات ليست أوعية زجاجية تعبئها بما تشاء ، وتفرغها مما تشاء ، فلكل حضارة وسائلها التي تنبض بروحها ، وتحسن التعبير عنها ، وتعكس فلسفتها ورؤيتها ، وتصورها وخصوصيتها ، وقد كانت اللغة العربية هي وسيلة الحضـــارة الإسلامية ، عقيدة وثقافة وفكرا وتشريعا ، وأدبا وفلسفة .

أليس من حقي أن أعجب بعد ذلك كله حينما أجد الكثيرين من الرابضين على ثغور هذه الأمة ، يتوجسون خيفة من مصطلح «الأدب الإسلامي» ، مع أنهم يدافعون عن نفس القضية التي يدافع عنها دعاة هذا الأدب؟! ، وإن كانت هنـاك بعض الاختلافات ـ وهذا شيء طبيعي ـ فإنه لا يصل بنا إلى درجة التناقض والقطعية .

إنني لا أجد كبير فرق بين القضية التي يدافع عنها رجل كالشيخ أبي الحسن الندوي رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، والقضية التي يدافع عنها الشيخ محمود محمد شاكر عضو مجمع اللغة العربية بمصر ، وأحد فرسان الثقافة العربية الإسلامية ، فكلاهما ـ أطال الله بقاءهما ـ يدافع عن ميراث هذه الأمة الحضاري ، في الأدب والثقافة واللغة ، ويدافع عنه عادية التغريبيين .

ولا أجد كبير فرق بين القضية التي يدفع عنها المرحوم الدكتور محمد محمد حسين تحت راية الأدب العربي ، وبين القضية التي كان يدافع عنها المرحوم الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا تحت راية الأدب الإسلامي ، فكلاهما يدافع عن لغة هذه الأمة وأدبها وقيمها الحضارية .

ومع أن القضية كانت تجمع ، فإن المصطلح كان يفرق ، فلماذا؟

إن الكثيرين حينما يسمعون مصطلح «الأدب الإسلامي» يقفز إلى ذهنهم الأدب الأخلاقي ، وأدب العقيدة ، وأدب الوعظ ، وأدب الحكمة ، والمدائح النبوية ، والتاريخ الإسلامي ، ومع أن هذه من مجالات الأدب الإسلامي لكنها لا تمثل إلا جزءا قليلا منه .

فمتى نستطيع أن نقنع فرسان الأدب العربي الذي عبر عن وجدان هذه الأمة بأن قضيتنا واحدة ، وأهدافنا واحدة ، وغاياتنا واحدة؟!

ومتى نستطيع أن نثبت أن عـــرانس أدبـــاء الحداثة ـــ وهم الأعلى صوتا والأكثر ظهورا ـــ لا ينبغي أن تحمل مصطلح الأدب العـــربي ، لأنها باختصار شديد ترفض رفضا قاطعا جوهر هذا النسب ، وتنفر منه ، وتكتفي من العربية بمفرداتها وحروفها ، وهي تجاهد أن تبحث عن نسب آخر ، لا ينتمي إلى حضارتنا ولا يتواصل معها .

فإذا رفض هؤلاء مصطلح «الأدب العربي» ، كما رفضوا مواريث هذه الحضارة ، وخلص هذا المصطلح لأدب هذه الحضارة وحده ، فلن تكون هناك مشكلة ، في الاصطلاح ، أما وأن الأمر ليس كذلك ـــ ولن يكون كذلك ـــ فلا مناص عندنا من التشبث بمصطلح «الأدب الإسلامي» ، الذي يتميز به ما ينتمي إلى هذه الحضارة وما لا ينتمي إليها .

الهوامش :

(١ ، ٢) راجع كتابنا الأدب الإسلامي ضرورة ص ١١٧ وما بعدها ـ ط أولى ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م ، رابطة الجامعات الإسلامية

(٢) انظر مقدمة ديوانه ص ٤٥ ، ط الثانية ـ القاهرة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م .

(٣) عن كتاب حصاد الفكر العربي الحديث في اللغة العربية ص ٣٥٤ . وهو تجميع لعدة مقالات ودراسات لأقلام مختلفة حول هذه القضية صدر عن دار مصر للثقافة ط أولى ١٩٨١م .

(٤) جهاد فاضل ـ قضايا الشعر الحديث ص ٣٠ ـ دار الشروق

(٥) مع الشعراء ص ٩١ ، دار الشروق ط الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

(٦) جهاد فاضل ـ مرجع سابق ص ٢٥٣

(٧) السابق ص ٦٨ ، ٦٩